سورة التحريم

هى مدنية ، وآيها ثنتا عشرة ، نزلت بعد الحُجُرات .

ومناسبها لما قبلها :

(١) أن سورة الطلاق فى حسن معاشرة النساء والقيام بحقوقهن ، وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبى صلى الله عليه وسلم تعليما لأمته أن يحذروا أمر النساء ، وأن يعاملوهن بسياسة اللين كما عاملهن النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، وأن ينصحوهن نصحاً مؤثراً .

(٢) أن كلتيهما افتتحا بخطاب النبى صلى الله عليه وسلم .

(٣) أن تلك فى خصام نساء الأمة ، وهذه فى خصومة نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أفردن بالذكر تعظيما لمكانتهن .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ، فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ؟ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ

أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) .

شرح المفردات

تحرّم : أى تمتنع ، ما أحل الله لك : هو العسل ، تبتغى : أى تطلب ، فرض : أى شرع وبيّن كما جاء فى قوله : « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا » ، وتحلة أيمانكم : أى تحليلها بالكفارة ، وتحلة القسم تستعمل على وجهين :

(١) أحدهما تحليله بالكفارة كما فى الآية .

(٢) ثانيهما بمعنى الشئ القليل وهذا هو الأكثر كما جاء فى الحديث : « لن يلج النار إلا تحلّة القسم » أى إلا زمنا يسيرا .

مولاكم : أى وليكم وناصركم ، بعض أزواجه : هى حفصة على المشهور ، نبأت به : أى أخبرت عائشة به ، وأظهره : أى أطلعه وأعلمه قول حفصة لعائشة ، عرّف : أى أعلمها ببعض الحديث الذى أفشته ، وأعرض عن بعض : أى لم يخبرها به ، إن تتوبا : أى حفصة وعائشة ، صغت قلوبكما : أى عدلت ومالت إلى ما يحب للرسول صلى الله عليه وسلم من تعظيم وإجلال ، وإن تظاهرا عليه : أى تتظاهرا وتتعاونا على إيذاء الرسول ، مولاه : أى وليه وناصره ، ظهير : أى ظهراء معاونون ، وأنصار مساعدون ، مسلمات : أى خاضعات لله بالطاعة ، مؤمنات : أى مصدّقات بتوحيد الله مخلصات ، قانتات : أى مواظبات على الطاعة ، تائبات : أى مقلعات عن الذنوب ، عابدات : أى متعبدات متذللات لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، سائحات : أى صائمات ، وسمى الصائم بذلك من حيث إن السائح لازاد معه ، ولا يزال ممسكا حتى يجد الطعام ؛ كالصائم لايزال كذلك حتى يجىء وقت الإفطار .

المعنى الجملى

روى البخارى ومسلم عن عائشة أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلْواء والعسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، وكان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا ، فتواطأتُ أنا وحفصة أنَّ أيَّتنا دخل النبى صلى الله عليه وسلم عليها فلتقل له : : إنى أجد منك ريح مغافير ، أكلت مغافير (صمغ حُلْوٌ له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العُرْفُط يكون بالحجاز) ، فقال لا بل شربت عسلا عنـد زينب بنت جحش ولن أعود له وقد حلفتُ ، لاتخبرى بذلك أحدا » .

وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقال إن التى دخل عليها النبى صلى الله عليه وسلم وحرّم على نفسه العسل أمامها هى حفصة فأخبرت عائشة بذلك ، مع أن النبى صلى الله عليه وسلم استكتمها الخبر كما استكتمها ما أسرّها به من الحديث الذى يسرّها و يسُر عائشة ، أن أباها وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتى من بعدى ، فالسر كان لها بأمرين :

(١) تحريم العسل الذى كان يبغيه عند زينب .

(٢) أمر الخلافة لأبويهما من بعده .

الإيضاح

(يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك ؟) أى يأيها النبى لم تمتنع عن شرب العسل الذى أحله الله لك ، تلتمس بذلك رضا أزواجك ؟

وهذا عتاب من الله على فعله ذلك ، لأنه لم يكن عن باعث مرضى ، بل كان طلباً لمرضاة الأزواج .

وفى هذا تنبيه إلى أن ماصدر منه لم يكن مما ينبغى لمقامه الشريف أن يفعله .

وفى ندائه صلى الله عليه وسلم بيأيها النبى فى مفتتح العتاب حسن تلطف ، وتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ، على نحو ماجاء فى قوله : « عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ؟ » .

(والله غفور رحيم) أى والله غفور لذنوب التائبين من عباده ، وقد غفر لك امتناعك عما أحله لك ، رحيم بهم أن يعاقبهم على ماتابوا منه من الذنوب

و إنما عاتبه على الامتناع عن الحلال وهو مباح سواء كان مع اليمين أو بدونه ، تعظيما لقدره الشريف ، و إجلالاً لمنصبه أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه جريا على ما ألف من لطف الله به ، و إيماء إلى أن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامى يعدّ كالذنب و إن لم يكن فى نفسه كذلك .

(قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم) أى قد شرع لكم تحليل أيمانكم بالكفارة عنها ، فعليك أن تكفر عن يمينك . وقد روى «أنه عليه الصلاة والسلام كفر عن يمينه فأعتق رقبة (عبدا أوأمة) » .

(والله مولا كم) أى والله متولى أموركم بنصركم على أعدائكم ، ومسهل لكم سبل الفلاح فى دنيا كم وآخرتكم ، ومنير لكم طرق الهداية إلى ما فيه سعادتكم فى معاشكم ومعادكم .

(وهو العليم الحكيم) أى وهو العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم ، الحكيم فى تدبير أموركم ، فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا وَفْقَ ماتقتضيه المصلحة .

ثم ساق ماهو كالدليل على علمه فقال :

(و إذ أسرّ النبى إلى بعض أزواجه حديثا ، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض) أى واذكر حين أسر النبى صلى الله عليه وسلم إلى حفصة أنه كان يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، وقال لن أعود له وقد حلفتُ ، لاتخبرى بذلك أحدا ، فلما أخبرت عائشة بما استكتمها من السر ، وأطلعه الله على مادار بين حفصة وعائشة بما كان قد طلب من حفصة أن تكتمه — أخبر حفصة

ببعض الحديث الذى أفشته وهو قوله لها : كنتُ شربت عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود ، وأعرض عن بعض الحديث وهو قوله وقد حلفت ، فلم يخبرها به تكرمًا منه ، لما فيه من مزيد خجلتها ، ولأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يود أن يشاع عنه اهتمامه بمرضاة أزواجه إلى حد امتناعه عن تناول ما أحل الله له .

(فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأنى العليم الخبير) أى فلما أخبر حفصة بما دار بينها و بين عائشة من الحديث ، قالت من أنبأك بهذا ؟ ظنًّا منها أن عائشة قد فضحتها بإخبارها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أخبرنى ربى العليم بالسر والنجوى ، الخبير بما فى الأرض والسماء لايخفى عليه شىء فيهما .

وفى الآية إيماء إلى أمور اجتماعية هامة :

(١) أنه لامانع من الإباحة بالأسرار إلى من تركن إليه من زوجة أو صديق .

(٢) أنه يجب على من استُكْتِم الحديث أن يكتمه .

(٣) أنه يحسن التلطّف مع الزوجات فى العتْب والإعراض عن الاستقصاء فى الذنب .

ثم وجه الخطاب لحفصة وعائشة مبالغة فى العَتب فقال :

(إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) أى إن تتوبا من ذنبكما وتُقْلعا عن مخالفة رسوله صلى الله عليه وسلم فتحبًا ما أحب وتكرها ما كرهه — فقد مالت قلوبكما إلى الحق والخير ، وأديتما مايجب عليكما نحوه صلى الله عليه وسلم من إجلال وتكريم لمنصبه الشريف .

روى عن ابن عباس أنه قال: لم أزل حريصا أن أسأل عمر رضى الله عنه عن المرأتين من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله لهما « إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ » الآية . حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق نزل ليتوضأ فصببت على يديه ، فقلت يا أمير المؤمنين : من المرأتان من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم اللتان

قال الله لهما « إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ » الآية ؟ فقال واعجباً لك يابن عباس! هما عائشة وحفصة ، ثم أخذ يسوق الحديث .

ثم ذكر سبحانه أنه حافظه وحارسه فلا يضره أذى مخلوق فقال :

(و إن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) أى و إن تتعاونا على العمل لما يؤذيه و يسوؤه من الإفراط فى الغَيْرة و إفشاء سره — فلن يضره ذلك شيئا ، فإن الله ناصره فى أمر دينه وسائر شئونه على كل من يتصدى لما يكرهه ، وجبريل والمؤمنون الصالحون والملائكة مظاهرون له ومعينون .

وقد أعظم سبحانه شأن النصرة لنبيه على هاتين الضعيفتين ، للإشارة إلى عظم مكر النساء ، والمبالغة فى قطع أطماعهما بأنه ربما شفع لهما مكانتهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند المؤمنين لأمومتهما لهم ، وكرامة له صلى الله عليه وسلم ورعاية لأبويهما ، ولتوهين أمر تظاهرهما ، ودفع ماعسى أن يتوهمه المنافقون من ضرره فى أمر النبوة ، وقهر أعداء الدين ، إذ قد جرت العادة بأن الشئون المنزلية تشغل بال الرجال وتضيع زمنا من تفكيرهم فيها ، وقد كانوا أحق به فى التفكير فيما هو أجدى نفعاً ، وأجلّ فائدة .

ثم حذرهما بما يلين من قناتهما ، ويخفض من غُلوائهما ، ويطمئن من كبريائهما فقال :

(عسى ربه إن طلقكنّ أن يبدله أزواجا خيرا منكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) أى عسى الله أن يعطيه (صلى الله عليه وسلم) بدلكن أزواجا خيرا منكنّ إسلاما و إيمانا ، ومواظبة على العبادة ، و إقلاعا عن الذنوب ، وخضوعا لأوامر الرسول ، بعضهنّ ثيبات و بعضهنّ أبكارا ، إن هو قد طلقكنّ .

والخلاصة — احذرن أيتها الأزواج من إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والتأثب عليه ، والعمل على مايسوؤه ، فإنه ربما أحرج صدره فطلقكنّ فأبدله الله من هو خير منكنّ فى الدين والصلاح والتقوى ، وفى الشئون الزوجية ، فأعطاه بعضهنّ أبكارا و بعضهنّ ثيبات .

ولاشىء أشد على المرأة من الطلاق ، ولا سيما إذا استبدل خير منها بها .

روى البخارى عن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبى صلى الله عليه وسلم فى الغَيْرة عليه ، فقلت : عسى ربه إن طلقكنّ أن يبدله أزواجا خيرا منكنّ فنزلت هذه الآية .

وروى عن أنس عن عمر قال : بلغنى عن بعض أمهاتنا أمهات المؤمنين شدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذاهنّ إياه ، فاستقريتهنّ امرأة امرأة أعظها وأنهاها عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : إن أبيتنّ أبدله الله خيرا منكنّ حتى أتيت على زينب ، فقالت يابن الخطاب : أما فى رسول الله مايعظ نساءه حتى تعظهن أنت فأمسكت ، فأنزل الله : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » الآية .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ، وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) .

شرح المفردات

قوا أنفسكم : أى اجعلوا لها وقاية من النار بترك المعاصى، وأهليكم : أى بحملهم على ذلك بالنصح والتأديب ، والوقود (بفتح الواو) : ماتوقد به النار ، والحجارة : هى الأصنام التى تعبد لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » ملائكة : هم خزنتها التسعة عشر ، غلاظ : أى غلاظ القلوب لايرحمون إذا استُرْحِمُوا ، شداد : أى أقوياء الأبدان ، والتوبة النصوح : هى الندم على مافات والعزم على عدم العودة إلى مثله فيما هو آت .

المعنى الجملى

بعد أن أمر بعض نساء النبى صلى الله عليه وسلم بالتوبة عما فرط من الزلات ، وأبان لهم أن الله كالئ رسوله وناصره ، فلا يضره تظاهرهن عليه ، ثم حذرهن من التمادى فى مخالفته صلى الله عليه وسلم خوفا من الطلاق وحرمانهم من الشرف العظيم بكونهنّ أمهات المؤمنين ومن استبدالهنّ بغيرهنّ من صالحات المؤمنات — أمر المؤمنين عامة بوقاية أنفسهم وأهليهم من نار وقودها الناس والحجارة يوم القيامة ، يوم يقال للكافرين : لاتعتذروا فقد فات الأوان ، وإنما تلقون جزاء ماعملتم فى الدنيا ، ثم أمر المؤمنين أن يقلعوا عن زلاتهم ، وأن يتوبوا توبة نصوحا ، فيندموا على مافرط منهم من الهفوات ، ويعزموا على عدم العودة فيما هو آت ، ليكفر الله عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات النعيم .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) أى أيها الذين صدّقوا الله ورسوله : ليُعْلِم بعضكم بعضاً ماتتقون به النار وتدفعونها عنكم ، إنه طاعة الله تعالى وامتثال أوامره ، ولتعلّموا أهليكم من العمل بطاعته مايقون به أنفسهم منها ، واحملوهم على ذلك بالنصح والتأديب .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » وقوله : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » .

روى أن عمر قال حين نزلت يارسول الله : نقى أنفسنا ، فكيف لنا بأهلينا ؟ فقال عليه السلام « تنهونهن عما نهاكم الله عنه ، وتأمرونهن بما أمركم الله به ، فيكون ذلك وقاية بينهم و بين النار » .

أخرج ابن المنذر والحاكم فى جماعة آخرين عن علىّ كرم الله وجهه أنه قال فى الآية : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدّبوهم .

والمراد بالأهل مايشمل الزوجة والولد والعبد والأمة .

وفى الآية إيماء إلى أنه يجب على الرجل تعلُّم مايجب من فرائض الدين وتعليمها لهؤلاء ، وقد جاء فى الحديث : « رحم الله رجلا قال يا أهلاه : صلاتكم ، صيامكم ، زكاتكم ، مسكينكم ، يتيمكم ، جيرانكم ، لعل الله يجمعكم معهم فى الجنة » .

(عليها ملائكة) أى موكّل عليها و يلى أمرها وتعذيب أهلها تسعة عشر ملكا هم زبانيتها الذين سيأتى ذكرهم فى سورة المدثر فى قوله تعالى : « سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » .

(غلاظ شداد) أى غلاظ على أهل النار أشداء عليهم .

ثم بين عظيم طاعتهم لربهم فقال :

(لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون) أى لايخالفون أمره ، بل يؤدون مايؤمرون به فى وقته بلا تراخ فلا يقدمونه عنه ولا يؤخرونه .

وقد أفادت الجملة الأولى نفى العناد والاستكبار عنهم فهى كقوله: « لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ » وأفادت الجملة الثانية نفى الكسل عنهم فهى كقوله تعالى : « وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ » .

وخلاصة ذلك — إنهم يمتثلون الأمر ولا يمتنعون عن تنفيذه ، بل يؤدونه من غير تثاقل ولا توان .

و بعد أن ذكر شدة العذاب فى النار واشتداد الملائكة فى الانتقام من أعداء الله الكافرين — بين أنه يقال للكافرين لافائدة فى الاعتذار لأنه توبة ، والتوبة غير مقبولة بعد الدخول فى النار فقال :

(يأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم) فقد فات الأوان ، ولا يجدى رجاء ولا اعتذار ، فلاتَ ساعة مندم .

ندم البغاةُ ولاتَ ساعةَ مَنْدَمٍ والبغْىُ مَرْتَعُ مبتغيه وخِيمُ

ثم بين السبب فى عدم فائدة الندم فقال :

(إنما تجزون ما كنتم تعملون) أى لأنكم إنما تثابون اليوم وتعطون جزاء أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا ، فلا تطلبوا المعاذير منها .

والخلاصة — إن هذه الدار دار جزاء لادار عمل ، وأنتم قد دسَّيتم أنفسكم فى الدنيا بالكفر والمعاصى بعد أن نهيتم عنها ، فاجنوا ثمر ماغرستم ، واشربوا من الكأس التى قد ملأتم .

و بعد أن ذكر أن التوبة فى هذا اليوم لاتجدى نفعا — نبَّه عباده المؤمنين إلى المبادرة بالتوبة النصوح فقال :

(يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم و يدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله : ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله و إلى مايرضيه عنكم — رجوعا لاتعودون فيه أبدا ، عسى ربكم أن يمحوا سيئات أعمالكم التى سلفت منكم ، ويدخلكم بساتين تجرى من تحت أشجارها الأنهار حين لايخزى الله محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : التوبة النصوح أن يندم العبد على الذنب الذى أصابه ، فيعتذر إلى الله ثم لايعود أبدا ، كما لايعود اللبن إلى الضَّرْع ، وهكذا روى عن عمرو بن مسعود وأبىّ بن كعب والحسن وغيرهم .

وقال الإمام النووى : التوبة النصوح ما استجمعت ثلاثة أمور :

(١) الإقلاع عن المعصية .

(٢) الندم على فعلها .

(٣) العزم الجازم على ألا يعود إلى مثلها أبدا .

فإن كانت المعصية تتعلق بآدمى وجب رد الظلامة إلى صاحبها أو وارثه ، أو تحصيل البراءة منه .

والخلاصة — إن المعصية إن كانت فى خالص حق الله كفى فيها الندم كما فى الفرار من الزحف وترك الأمر بالمعروف ، و إن تعلقت بحقوق العباد لزم مع الندم العزم على إيصال حق العبد أو بدله إليه إن كان الذنب ظلما كما فى الغصب والقتل العمد ، والاعتذار إليه إن كان إيذاء كما فى الغيبة إذا بلغته ، ولا يلزم تفصيل ما اغتابه به إلا إذا بلغه على وجه أفحش .

وجىء بكلمة (عسى) التى تفيد الطمع فى حصول العفو فحسب ، مع أن الله سبحانه وعد بقبول التوبة — جريا على سنن الملوك فى التخاطب ، فإنهم يقولون

إذا أرادوا فعلا : عسى أن نفعل كذا ، و إشعارا بأن ذلك تفضل منه سبحانه ، والتوبة غير موجبة له ، وأن العبد ينبغى أن يكون بين خوف ورجاء ، وإن بالغ فى إقامة وظائف العبادة .

ثم بين ما يكون للنبى والذين آمنوا معه من علامات الظفر والفوز بالمطلوب فقال:

(نورهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم) أى نورهم يسعى بين أيديهم حين يمشون و بأيمانهم حين الحساب ، لأنهم يؤتون الكتاب بأيمانهم وفيه نور وخير لهم .

ثم بين مايطلبونه من ربهم فقال :

(يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا) أى يسألون ربهم أن يبقى لهم نورهم فلا يطفئه حتى يجوزوا الصراط ، حين يقول لهم المنافقون والمنافقات : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقد تقدم نحو هذا فى سورة الحديد ، و يطلبون أيضا منه أن يستر عليهم ذنوبهم ، ولا يفضحهم بعقوبتهم عليها حين الحساب .

ثم ذكروا مايطمعهم فى إجابة الدعاء فقالوا :

(إنك على كل شىء قدير) أى إنك على إتمام نورنا ، وغفران ذنوبنا ، وكل مانرجو منك ونطمع — قدير يا ربنا ، فاللهم أجب دعاءنا ، ولا تخيب رجاءنا .

وقد روى أن أدناهم منزلة من يكون نوره بقدر مايبصر موطئ قدمه ، لأن النور على قدر العمل .

وروى أن السابقين إلى الجنة يمرون على الصراط مثل البرق ، ويمر بعضهم كالريح ، و بعضهم يحبو حبوا و يزحف زحفا ، وهم الذين يقولون : « رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا » .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) .

شرح المفردات

الجهاد تارة يكون بالسيف وأخرى بالحجة والبرهان ، واغلظ عليهم : أى شدّد ، والمأوى : مكان الإيواء والإقامة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه المؤمنين بالتوبة النصوح والرجوع إلى الله والإخبات إليه . أمر رسوله بقتال الكفار الذين يقفون فى سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله ، وبوعيد المنافقين والغلظة عليهم حتى يثوبوا إلى رشدهم ، وذكر أن جزاءهم فى الآخرة جهنم وبئس المقيل والمأوى .

الإيضاح

(يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) أى جاهد الكفار بالسيف وقاتلهم قتالا لاهوادة فيه ، وجاهد المنافقين بالإنذار والوعيد وبيان سوء المنقلب ، وعنّفهم بفضيحة عاجلة تبين قبح طواياهم وخبث نفوسهم ، كما حدث منه صلى الله عليه وسلم فى المسجد الجامع لبعض المنافقين على ملأ من الناس فقال : اخرج يافلان ، اخرج يافلان ، وأخرج منهم عدداً كثيراً .

ثم بين سوء عاقبتهم فقال :

(ومأواهم جهنم وبئس المصير) أى وسيكون مسكنهم جهنم وبئس المثوى والمقيل .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) .

شرح المفردات

ضرب المثل : ذكر حال غريبة لتعرف بها حال أخرى تشاكلها فى الغرابة ، تحت عبدين : أى فى عصمتهما ، فخانتاها : أى نافقتا فأخفتا الكفر وأظهرتا الإيمان ، وكانت امرأة نوح تقول لقومه : إنه مجنون ، وامرأة لوط تنزل قومه على نزول أضيافه عليه ، فلم يغنيا عنهما : أى لم يفيداهما ولم يجزيا عنهما من الله شيئا ، امرأة فرعون : على ماقيل هى آسية بنت مزاحم ، نجنى من فرعون وعمله : أى خلصنى منه فإنى أبرأ إليك منه ومن عمله ، والقوم الظالمون : هم الوثنيون أقباط مصر ، وأحصنت فرجها : أى حفظته وصانته ، والفرج : شق جيب الدرع (القميص) إذ الفرج لغة كل فرجة بين الشيئين ، ويراد بذلك عفتها ، وكلمات ربها : أى شرائعه وكتبه التى أنزلها على رسله ، والقانتين : أى الطائعين المخبتين إلى الله الممتثلين أوامره .

المعنى الجملى

بعد أن أمر عباده المؤمنين بالتوبة النصوح بالندم على مافات ، وعدم العودة فيما هو آت ، وأمر رسوله بجهاد الكافرين والمنافقين والغلظة لهم فى القول والعمل . ذكر هنا أن النفوس إن لم تكن مستعدة لقبول الإيمان ، وفى جوهرها صفاء ونقاء

فلا تجدى فيها العظة والعبرة ولا مخالطة المؤمنين المتقين ، وضرب لذلك المثل بامرأة نوح وامرأة لوط فقد كانتا فى بيت النبوة ولم يلن قلبهما للإيمان والإسلام .

كذلك إذا كان جوهر النفس نقيا خالصا من كدورة الكفر والنفاق فمجاورتها للكفرة وعشرتها إياهم لاتغير من حالها شيئا ، ولا يؤثر فيها ضلال الضالين ولا عتوّ الظالمين ، وضرب لذلك مثل امرأة فرعون التى ألحف عليها فرعون وقومه أن تعتنق الوثنية التى كانوا يدينون بها ، وتعتقد ألوهيته هو فأبت وجاهدت فى الله حق جهاده حتى لاقت ربها وهى آمنة مطمئنة قريرة العين بما دخل فى قلبها من نور الإيمان ، وكذلك مريم بنة عمران التى عفّت فآتاها الله الشرف والكرامة ، وأنجبت نبى الله عيسى ، وصدقت بجميع شرائعه وكتبه وكانت من العابدين القانتين .

وفى هذا المثل إيماء إلى أن قرابة المشركين للنبى صلى الله عليه وسلم لاتجديهم نفعا بعد كفرهم وعداوتهم له وللمؤمنين ، فإن الكفر قد قطع العلائق بينه و بينهم وجعلهم كالأجانب ، بل أبعد منهم كحال امرأة نوح وامرأة لوط لما خانتاهما ، كما تضمن التعريض بأمى المؤمنين حفصة وعائشة لما فرط منهما ، والتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده .

الإيضاح

(ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) أى ضرب الله مثلا يبين به حال الكافرين الذين لم ينتفعوا بعظات المؤمنين الصادقين من النبيين والمرسلين لظلمة قلوبهم وسوء استعدادهم وفساد فطرتهم — امرأة نوح وامرأة لوط إذ كانتا فى عصمة نبيَّيْن يمكنهما أن ينتفعا بهديهما و يحصّلا مافيه سعادتهما فى معاشهما ومعادهما ، لكنهما أبتا ذلك وعملتا مايدل على الخيانة والكفر ، فاتهمت الأولى زوجها بالجنون ، وكانت الثانية ترشد قوم لوط إلى ضيوفه لمآرب خبيثة ،

فلم يدفع عنهما قربهما من ذينك العبدين الصالحين شيئا ، وحاق بهما سوء ماعملتا وسيحل بهما عقاب الله ، وسيدخلان النار فى زمرة داخليها جزاء وفاقا لما اجترحتا من السيئات ، وما دسّتا به أنفسهما من كبير الآثام ، وعظيم المعاصى .

وفى هذا تعريض بأمهات المؤمنين ، وتخويف لهنّ بأنه لايفيدهنّ — إن أتين بمعصية — اتصالهُنّ بالنبى صلى الله عليه وسلم وكونهنّ فى عصمته .

وبعد أن ضرب مثلا يبين به أن وصلة الكافرين بالمؤمنين لاتفيدهم شيئا . أرشد إلى عكس هذا فأفاد أن اتصال المؤمنين بالكافرين لايضرهم شيئا فقال :

(وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين) أى وجعل الله حال امرأة فرعون مثلا يبين به أن وصلة المؤمنين بالكافرين لاتضرهم شيئا إذا كانت النفوس خالصة من الأكدار ، فقد كانت تحت أعدى أعداء الله فى الدنيا ، وطلبت النجاة منه ومن عمله ، وقالت فى دعائها : رب اجعلنى قريبا من رحمتك ، وابن لى بيتاً فى الجنة ، وخلصنى من أعمال فرعون الخبيثة ، وأنقذنى من قومه الظالمين .

وفى هذا دليل على أنها كانت مؤمنة مصدّقة بالبعث ، ومن سنن الله أن لاتزر وازرة وزر أخرى ، وأن لكل نفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت .

(ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) أى وضرب الله مثلا للذين آمنوا حال مريم وما أوتيت من كرامة الدنيا وكرامة الآخرة ، فاصطفاها ربها مع أن أكثر قومها كانوا كفاراً ، من قِبَل أنها منعت جيب درعها جبريل عليه السلام وقالت له : « إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » فأثبتت بذلك عفتها وكمال طهارتها ، فنفخ جبريل فى جيب درعها فحملت بنبى الله وكلمته عيسى صلوات الله عليه ، وصدقت بشرائع الله وكتبه التى أنزلها على أنبيائه ، وكانت فى عداد القانتين العابدين المخبتين لربهم المطيعين له .

روى أحمد فى مسنده: «سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم عائشة» وفى الصحيح «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم بنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وفضل عائشة كفضل الثريد على سائر الطعام» .

وإنما فضل الثريد لأنه مع اللحم غذاء جامع بين اللذة وسهولة التناول وقلة المئونة فى المضغ وسرعة المرور فى المرىء ، فضربه مثلا ليؤذن بأنها رضى الله عنها أعطيت مع حسن الخلق حلاوةَ المنطق ، وفصاحة الكلام ، وجودة القريحة ، ورزانة الرأى ، ورصانة العقل ، والتحبب للبعل ، وبحسبك أنها عقلت من النبى صلى الله عليه وسلم مالم يعقل غيرها من النساء ، وروت مالم يرو مثله الرجال .

ماتضمنته هذه السورة

اشتملت هذه السورة على شيئين :

(١) أخبار نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، وحلفه صلى الله عليه وسلم ألا يشرب العسل إرضاء لبعضهنّ ، واطلاع الله له على ما أفشين من سرّ أمرهنّ بكتمه ، من أول السورة إلى قوله : « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

(٢) ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكان الفراغ من مسودّة هذا الجزء بحلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية فى العشرين من شهر رمضان المعظم من سنة خمس وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة .